عرب ويهود

لا يسع الإنسان إلا أن يتساءل عن سرِّ عداء اليهود للعرب وللمسلمين، وبخاصة أن العرب أولاد اسماعيل بن ابراهيم، واليهود أبناء اسحق بن ابراهيم أي هم أحفاد جد واحد باستثناء اليهود الصهاينة من سلالة الخزر. الذين يشكلون غالبية الكيان الإسرائيلي.

وكذلك إن المسلم لا يصح إيمانه إن لم يؤمن بالأنبياء كلهم، ومنهم موسى عليه السلام الذي يدّعي اليهود أنهم أتباعه.

وفي بداية الإسلام نظّم الرسولﷺ مع اليهود ما يعرف باسم "الصحيفة" التي كانت بمثابة دستور للدولة الناشئة وعدَّت اليهود مواطنين كغيرهم من سكان المدينة. وبعيداً عن أسباب ما حدث من صراع في صدر الإسلام بين المسلمين واليهود فقد عاش اليهود في بلاد المسلمين وفي ظل الحكومات المتعاقبة مواطنين كغيرهم من سكان البلاد. وأتذكَّر كغيري من كبار السن أنه قبل سنة 1947م كان اليهود في البلاد العربية يؤدون شعائرهم بكل حرّية، ويقومون بكل الأعمال التي يقوم بها غيرهم من المواطنين، وكان بينهم أطباء ومهندسون وتجار مرموقون، وكانوا يعيشون حياة مرفَّهة ومحترمة أفضل من معيشتهم في فلسطين المحتلة، حيث لم يستطع بعضهم العيش فيها فهجرها وبقي يحنّ إلى بلده الأصلي.

فاليهودية دين وليست قومية، واليهودي يمكن أن يكون سورياً أو عراقياً أو فرنسياً... والذي يستطيع التجرد والحياد يدرك أن لا مستقبل لكيان محاط بالأعداء ويعيش على المساعدات، وسكانه مستنفرون دائماً، ولا يأمن أحدهم على نفسه النوم ليلة بهدوء نتيجة الخوف والقلق.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو لماذا إذاً أنشىء هذا الكيان، وفي هذا المكان؟ والجواب متشعب الجوانب والأسباب؛ فقد اضطهدت المسيحية اليهود منذ بداية قوتها، وحمَّلتهم

مسؤولية دم المسيح عليه السلام. وابتداء من عهد الرومان حتى عهد هتلر كان اليهود يتعرضون في البلاد المسيحية إلى الاحتقار والهوان، وكثيرة هي المؤلفات التي تتناولهم بأبشع النعوت والصفات، وقد عدّهم هتلر مسؤولين عن هزيمة الألمان في الحرب العالمية الأولى، واتهمهم بالخيانة فتعرضوا لمذابح غالوا فيها واستثمروها، فنشأت لدى الدول المسيحية عقدة الذنب وأخذ قادتها يفكرون بجمع اليهود في كيان، فيعوِّضون عليهم ما تعرضوا له من عذاب، ويتخلصون من شرورهم وخياناتهم.

وكان قد سبق مذابح اليهود في ألمانيا قضية دريفوس سنة 1894م، وملخصها أن النقيب في الجيش الفرنسي اليهودي "الفريد دريفوس" اتهم بالخيانة والتجسس على فرنسا لصالح الألمان، فجُرِّد من رتبته وحكم عليه بالاشغال الشاقة ونفي. ثم تبيَّن أنه كان مظلوماً، وجاء ذلك الحكم لتحامل القضاء الفرنسي على اليهود. فانقسم المجتمع الفرنسي، وشغل العالم الأوروبي بهذه القضية، فانتعشت فكرة إقامة كيان يهودي في أرض فلسطين وهي فكرة تتلاقى مع عقائد بعض فئات البروتستانت الذين يؤمنون بأن المسيح سيجيء بعد إعادة بناء الهيكل في القدس.

وتزامن ذلك مع تزايد خوف الدول الاستعمارية المسيحية من نهضة المسلمين، ما جعلهم يفكرون بوضع خطة تمنع المسلمين، بعد ضعف الدولة العثمانية، من استعادة امجادهم، وتوحيد بلادهم.

فدعا رئيس وزراء بريطانيا سنة 1905 "كامبل بانرمان" ممثلي الدول الاستعمارية في ذلك الوقت: فرنسا، وبلجيكا وهولندة، وايطاليا، واسبانيا، والبرتغال، وقال لهم إن جميع الامبراطوريات التي سادت معظم بلاد العالم خلال حقب التاريخ زالت، ولكي لا يلحقهم ما لحق بغيرهم عليهم لكي يستمروا وضع مخطط يمكنهم من الاستمرار في الاستعمار.

وهكذا يشكِّل مصلحة مشتركة بينهم على الرغم مما بينهم من خلافات، نتيجة تضارب المصالح أحياناً.

فشكَّل المجتمعون لجنة خبراء في السياسة والاقتصاد والتاريخ والاجتماع، وقدَّموا تقريرهم بعد أكثر من سنة إلى الحكومة البريطانية. وبقي ذلك التقرير سرّياً لأهميته، حتى تسَّرب جزء منه بعد سنوات من وضعه، فإذا به خطة شيطانية ما زالت دول الغرب تعمل على تنفيذها، على الرغم من فشلها في بعض الأحيان، وعلى الرغم من انتهاء الاستعمار بالمفهوم الذي كان سائداً في ذلك الزمان، ونشأة سبل جديدة للاستغلال والنفوذ والسيطرة. ولكن لبَّ الموضوع لم يتغيَّر، وهو السيطرة على بلاد الشام أولاً، أو تحطيمها، ومنعها من التحرر والاتحاد ثانياً.

ونقتبس من ذلك التقرير ما يهم موضوعنا:

إن البحر الأبيض المتوسط هو الشريان الحيوي للاستعمار ولمصالح تلك الدول، الآنيَّة واللاحقة. فهو الجسر بين الشرق والغرب، وهو الممر الطبيعي إلى آسيا وإلى أفريقيا، وهو ملتقى طرق العالم، فلا بد لنجاح أية خطة تستهدف حماية المصالح الأوروبية المشتركة من السيطرة على هذا البحر وعلى شواطئه الجنوبية والشرقية، لأن من يسيطر على هذه المنطقة يستطيع التحكُّم في العالم.

إن الخطر يكمن في البحر المتوسط وفي شواطئه الجنوبية والشرقية بوجه خاص، فعلى الجسر البرّيِّ الضيق الذي يصل آسيا بأفريقيا، وتمرُّ فيه قناة السويس، شريان حياة أوروبا، وعلى جانبي البحر الأحمر، وعلى طول ساحلي البحر الهندي وبحر العرب، حتى خليج البصرة، حيث الطريق إلى الهند، وإلى الامبراطوريات الاستعمارية في الشرق. وفي هذه البقعة الشاسعة الحسّاسة يعيش شعب واحد، تتوافر له من وحدته التاريخية والدينية ووحدة لسانه وآماله، كل مقوِّمات التجمُّع والترابط والاتحاد، وتتوافر له في نزعاته التحرّرية وفي ثرواته الطبيعية، ومن كثرة تناسله، كل أسباب القوَّة والتحرر والنهوض. ويبلغ تعداده الآن 35 مليون نسمة [سنة 1905]، ويمكن أن يرتفع في مدى قرن واحد إلى مئة مليون نسمة، نظراً إلى شرائعه الإسلامية، التي تتيح تعدد الزوجات، وتؤدي إلى زيادة النسل والتكاثر. فكيف يمكن أن يكون وضع هذه المنطقة إذا توحَّدت – فعلاً – آمال شعبها وأهدافها، وإذا اتجهت هذه القوة في اتجاه واحد؟

عند ذاك ستحلُّ الضربة القاضية حتماً بالامبرطوريات الاستعمارية، وعندها ستتبخَّر أحلام الاستعمار بالخلود، فتتقطَّع أوصاله. ثم يضمحل وينهار كما انهارت امبراطوريات الرومان والإغريق.

وبناءً على ما تقدم فقد اقترح التقرير:

1- على الدول ذات المصالح المشتركة أن تعمل على استمرار تجزئة هذه المنطقة... وتأخُّرها، وإبقاء شعبها على ما هو عليه من تفكُّك وتأخُّر وجهل.

2- ضرورة العمل على فصل الجزء الافريقي في هذه المنطقة عن الجزء الآسيوي. وتقترح اللجنة لذلك إقامة حاجز بشري، قوي وغريب، يحتلُّ الجسر البرّي الذي يربط أوروبا بالعالم القديم ويربطهما معاً بالبحر الأبيض المتوسط، بحيث يشكِّل في هذه المنطقة، وعلى مقربة من قناة السويس، قوة صديقة للاستعمار، وعدوَّة لسكان المنطقة... والتقرير طويل، ومقترحاته كثيرة ومتشعبة، وهذا ما يهم موضوعنا منه.

لقد شكّل هذا التقرير "خريطة طريق" اعتمدها الغرب وعمل على تطبيقها. وقد تلاقت مصالح الغرب مع مصالح كبار اليهود الذين أشرنا إليهم، والذين كانوا يعملون لاختيار وطن يهودي. ووجدوا في فلسطين إمكانية لا تتوافر في غيرها، فكان إحياء "خرافة أرض الميعاد". وراقت الفكرة لحكام بريطانيا لأن انشاء كيان يهودي في فلسطين هو ما يسعون إليه "إنشاء وطن غير مسلم معاد لشعب المنطقة في ساحل بلاد الشام" ومن هذا المنطلق جاء وعد بلفور، ثم تقارير لورنس السرّية، وتوّج ذلك التعاون وتبادل المصالح بتقسيم فلسطين سنة 1948م والواقع أن كل طرف يستغل الطرف الآخر.

وبما أنه من الثابت تاريخياً أن الفلسطينين استوطنوا فلسطين منذ فجر التاريخ المعروف، والوجود الإسرائيلي أو العبري أو اليهودي في فلسطين كان طارئاً، إما لاجئين أو محتلّين، وقد طردهم الرومان وشتتوهم في مختلف بقاع الأرض، لدرجة أنه عندما فتح المسلمون القدس في عهد عمر بن الخطاب لم يكن فيها يهودي واحد، واشترط سكان القدس

المسيحيون على المسلمين ألا يسكن معهم في القدس أحد من اليهود. فجاء في بداية وثيقة عهد عمر للمقدسيين الآتي:

"هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان. أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم... ولا يكرهون على دينهم، ولا يُضارَّ أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود".

وبعد حوالي 1300 سنة ونتيجة تهاون المسلمين والسماح لليهود باستيطان فلسطين بلغ عدد اليهود بحسب الإحصاءات سنة 1919م زهاء خمسة وثلاثين ألف نسمة لا غير.

واليوم وبعد تحقيق جزء من خريطة الطريق، وسلب الولايات المتحدة قيادة العالم الغربي من بريطانيا يجد اليهودي نفسه في فلسطين المحتلة أسير خرافة لا يمكن الاستمرار فيها ولا مستقبل لأولاده بها، فيفكر بالهجرة، والعاقل منهم لا يغترّ بتدمير سورية، ولا بسلب، الجولان، ولا بانحياز ترامب، ولا بتخاذل المتخاذلين فلا شيء يوحي بدوام الحال، لأنه من المحال.

وقد أدرك يهود كثيرون أن المسلمين والعرب بعيدون عن العنصرية، ولا يكرهون اليهود لأنهم يهود على عكس اليهود، فهم عنصريون، تسيطر على عقولهم عقدة "شعب الله المختار" وينظرون إلى بقية شعوب الأرض على أنهم "غوييم" عليهم خدمة "شعب الله المختار"، ولكن العرب مسلمين ومسيحيين لا يمكن أن يتنازلوا عن حقوقهم ويقرّوا أو يسامحوا من اغتصب أرضهم... وقتل رجالهم... وشرَّد أبناءهم... كما تنبّه علماء كثيرون منهم إلى حقيقة الوهم الذي اختلقه تجار حروب صهيونيون، واستعماريون غربيون، فكان أن وجد مؤرخون منصفون، وعلماء يهود حياديون، يتمتعون بالتفكير السليم والشجاعة الكافية لنشر افكارهم وما توصلوا إليه في كتب تكشف القناع عن الخرافات والاختلاقات...، ويطلق على هؤلاء اسم "المؤرخون الجدد" ويبقى الغريب في الأمر أن العرب على الرغم من كشف المخططات العدوانية لا يتصدون لها، بل يساهم بعضهم في تنفيذها.

أحمد راتب عرموش